سورة البقرة

المحاضرة السادسة عشر

الآيات من 84 : 90

إن الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أن مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وبعد..

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار..

"وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ (84) "

- بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن من أكبر الكبائر بعد الشرك به: قتل النفس؛ فهو أمرٌ عظيم عنده سبحانه..

(لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ): فما هو السفك؟ السفك هو الصَّب.

- وليس المقصود هو قتل النفس ولكن المقصود هو الامتناع عن قتل أخيه الذي هو على مِلَّته (دينه) وهذا من المواثيق التي أخذها الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل وهذا كقوله تعالى:

{ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ...(11)} (الحجرات)

فلا أحد يلمز نفسه ولكن المقصود أن المسلم يمتنع عن لمز أخيه في الإسلام فجاء التعبير بهذه الصورة لبيان شدة الأمر وصعوبته.

- إذًا المراد من قتل النفس في هذه الآية وجهان:

الوجه الأول: أن قتل أبناء الملة الواحدة لبعضهم هو بمثابة قتل الواحد منهم لنفسه.

- الوجه الثاني: هو أن لا يقتل الواحد منكم أخاه حتى لا يُقاض به قصاصًا؛ أي لا تُعرض دمك للسفك نتيجة قتلك لأخيك فيُقتص منك (والله تعالى أعلى وأعلم).

(وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ):

وفي هذا تأكيد للمعنى الأول، فلا أحد يُخرج نفسه من بيته بل أن مَن يُخرجه هو شخصٌ آخر مُعتدٍ عليه.

- وبعد أن ورد ذكر واحدة من أكبر الكبائر عند الله وهي (سفك الدماء) ورد ذكر أمر من الأوامر الصعبة أيضًا وهو (الإخراج من الديار) لأن أصعب شيء على الإنسان هو إخراجه من بيته فهو أمرٌ صعبٌ على النفس.

قال الحق سبحانه: في سفك الدماء (أنفسكم)، وفي الإخراج من البيت (أنفسكم) وهذا لبيان أن الأمر شديد في كلٍ منهما.

(ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ): لقد اعترفتم بالميثاق الذي أُخِذَ عليكم ابتداءً (وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ) وغير ذلك من المواثيق التي أُخِذت عليكم ولكنكم نقضتم كل هذه المواثيق وخرجتم عن طاعة الله عز وجل وأصررتم على عصيانكم وضلالكم وأنتم تشهدون على أنفسكم.

(وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ):

تأكيد على أفعالكم البشعة حيث أنكم تعرفون كل هذه المحرمات وكونها محرمة عليكم وقد أخذ ربكم عليكم المواثيق والعهود ولكنكم نقضتم كل هذه المواثيق وفعلتم الأفاعيل وأنتم تشهدون على أنفسكم (كمَن يشهد على نفسه).

- فأنتم يا مَن تعيشون في زمن النبيﷺ شهود على أسلافكم من اليهود، بل أنتم أيضًا تدخلون في هذا الذم الذي طالهم لأنكم سِرْتُم على خُطاهم وكأن هذه الصفات البشعة قد توارثتموها جيلًا بعد جيل.

"ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (85)"

(ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ):

الخطاب لليهود الحاضرين وقت نزول القرآن لا يهود زمن موسى عليه السلام، والدليل قوله تعالى (هَٰٓؤُلَآءِ): لأن هؤلاء اسم إشارة، واسم الإشارة لا يكون لغائب بل لابد أن يكون مُشار به إلى حاضر.

(هَٰٓؤُلَآءِ): الخطاب بـ (هؤلاء) للدلالة على أمرين:

1- أن المقصود بالخطاب هم يهود المدينة.

2- أن المقام مقام تعجب من حال المخاطب، فقد كان حال القوم عجيب ! (وهذا أسلوب من أساليب العرب).

(تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ):

سبق القول أن المقصود هو قتل بعضهم البعض والآيات الدالة على ذلك كثيرة..

- أما الواقع فقد كان يشهد هو الآخر بذلك: فقد كانت المدينة قبل قدوم النبيﷺ إليها يقطنها:

- **قبيلتان (الأوس/ الخزرج).**
- **يهود انقسموا في هذا الحين إلى ثلاثة طوائف وهم:**

(يهود بني قينقاع/ يهود بني قُريظة/ يهود بني النضير)

- وكانت هناك تحالفات بين كل قبيلة من القبيلتين بطائفة من طوائف اليهود، وبالتالي كانت بينهم معاهدات تقتضي مناصرة الحليف ولو كان على حساب بني ملته، فإذا حدث اقتتال بين القبائل (وكثيرًا ما كان يحدث هذا عند أتفه الأسباب) كان اليهودي يقف ضد أخيه وربما يقتله، فإذا ما انتصرت إحدى القبيلتين على الأخرى وأرادت أن تُجلي اليهود عن قطعة من الأرض فإن اليهودي المتحالف مع هذه القبيلة يشترك معها في إجلاء إخوته من اليهود(وهم من بني ملته) !!

- ولهذا جاء خطاب القرآن بقول (أنفسكم) وذلك لبيان عدم جواز فعل ذلك بين أبناء المِلة الواحدة، والحديث وإن كان موجه لبني إسرائيل إلا أنه يُقصد به كل مَن ينتمون لملة واحدة.

(وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ):

وفي نفس الوقت الذي يقتلون فيه بعضهم البعض ويُخرجون بعضهم من ديارهم يسعون لدفع فدية اليهودي الذي أُسِر نتيجة نشوب الحرب !! وهذا الفعل مذموم أيضًا..

- لقد حرَّم ربكم عليكم سفك دماء بعضكم ولكنكم سفكتم دماءكم، وحرّم عليكم إخراج بعضكم من دياركم ولكنكم فعلتم ذلك أيضًا، فلماذا عندما يؤسر بعضكم تُسارعون لدفع الفدية وفك أسره؟!!

فذمهم الله عز وجل غاية الذم على تلك الأفعال.

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ):

أي لماذا استبحتم دماءكم، واستبحتم إجلاء بعضكم عن ديارهم وحين وضعت الحرب أوزارها، وأصبح هناك أسرى من اليهود والمشركين أسرعتم لافتداء الأسرى من اليهود؟!!

فائدة الآية تحمل توبيخًا شديدًا لأن الإنسان في حاله مع الله لا يجوز أن يؤمن بأشياء ويترك أشياء!

- ولذلك أجمع أهل السنة على أن الإنسان إذا كفر بآية واحدة أو حكم واحد فكأنما كفر به كله، لماذا؟ (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) لقد أخذوا جزء من أوامر الله ورفضوا أجزاء أخرى وهذا مما لا يجوز فعله، بل على الإنسان أن يقبل كل أوامر الله ويتجنب كل النواهي.

- ولكن هل معنى ذلك أن مَن يمتثل لأوامر الله في أمور ويعصيه في أمور أخرى أنه كافر؟ لا. ليس هكذا ولا يجوز قول ذلك، ولكن المقصود أن مَن يتأرجح بين الطاعات والمعاصي هو على خطر عظيم – ومَن يقبل أحكام من الدين ويرفض أخرى فإن هذا يُدخله في (أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ)

- لماذا كفر بنو إسرائيل؟ لأنهم ردّوا الأحكام والأوامر على الأنبياء (حكم الله) ولم يقبلوها فحُكِم عليهم بالكفر، وردهم الحكم والأمر كان رد عناد واستكبار وليس ضعفًا كمَن يقع في معصية.

- على العبد أن يعلم أنه ليس هناك تكليفٌ صعب ولكنه الصدق والعزم فقط، والذي يدّعي أن هناك عمل من أعمال الدين صعبة يكون الرد عليه أنه لم يقرأ كتاب الله جيدًا، ولم يفهم عن ربه سبحانه الحكيم؛ فالصعوبة تكمن في النفس لأن الإنسان إذا أراد أن يستقيم فعليه أن يُجاهد في صدق النية وصدق العزم.

(فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ)

فما الجزاء المترتب على هذا الذي فعلوه؟

- الخزي في الدنيا.

- ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب.

لكن ماهو الـ (خِزۡيٞ)؟ الخزي هو الذل في النفس، وهو طارئ عليها (مُفاجئ) لإهانة لحقتها أو معرَّة أصابتها، فتكون في حالة من الذل والانكسار أمام الناس.

● هذا بالفعل حدث لهؤلاء عندما أجلاهم النبيﷺ عن المدينة نتيجة نقضهم العهود والمواثيق التي كانت بينهم وبينه؛ فقتل منهم مَن قتل، وسبى منهم مَن سبى، ثم أجلى مَن تبقى منهم.

(وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ):

أي لا يغفل الله سبحانه وتعالى عن أي شيء، ولايغفل يا معشر اليهود عما تعملون أنتم.

" أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (86)"

وفي هذا بيان لحالهم أيضًا فمَن هؤلاء؟ هؤلاء الذي اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فقالوا أنهم لا يستطيعون التخلي عن حُلفائهم أو الامتناع عن إعانتهم ولو كان هذا على حساب دينهم لأنهم يخشون أن يلحقهم العار.

فالتحالف الذي كان بينهم وبين المشركين أوجب عليهم أن يقتل اليهودي أخاه (اليهودى الموجود في الجهة المقابلة) وأن يخرجه من داره أيضًا إذا تطلب الأمر ذلك، هؤلاء خافوا من العار فاختاروا النار.

وهل هذا الأمر يحدث مثله الآن؟ نعم، يحدث كثيرًا..

فكثيرًا ما نجد مَن يُفضِل أن لا يُعيَّر في الدنيا ولو كان هذا يُوصله إلى النار(هذا منطق الكثير من المسلمين اليوم) اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، لقد أعرضوا عن الدين بالرغم من التمكين والقُدرة على تحصيل الدين فلا أحد غير قادر ولكن هناك مَن لا يُريد !

(وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ):

ليس لهم من دون الله ولي ولا نصير، ولن يُدفع عنهم العذاب أو يُخفف ولو ليومٍ واحد، والجميع سيُحاسب؛ كلٌ بحسب عمله.

" وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87)"

- نعت الحق سبحانه بني إسرائيل (بالعتو/ والعناد/ والاستكبار/ والمخالفة/ وقتل الأنبياء والتكذيب لهم/ اتباع هوى أنفسهم) وتلك صفات ذميمة، وبيَّن أنهم قوم لا يستجيبون لأي شيء يأتيهم من عند الله تبارك وتعالى.

(وَقَفَّيْنَا): أي أتبعنا وأردفنا.

كقوله تعالى { ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا..(44)} (المؤمنون) أي رسول بعد رسول، وكل هؤلاء أُرسلوا لبني إسرائيل من أجل أن يستقيم أمرهم على شريعة ربهم.

(وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ):

عيسى ابن مريم عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد جاء بالإنجيل، والإنجيل كان فيه مخالفة لبعض الأحكام الواردة في التوراة، ولهذا بدأ اليهود في إضمار الحسد لـ (عيسى) والعداوة له عليه السلام.

- وقد أعطاه الله آيات بينات تدل على نبوته حتى لا يجد بنو إسرائيل وجه للاعتراض على تلك النبوة، وبالرغم من ذلك جاء اعتراضهم فقالوا: كيف يأتي بما يخالف ما جاء في التوراة ؟! وذلك اتباعًا منهم لهوى أنفسهم.

(وَأَيَّدْنَٰهُ): أي قويناه وأعنّاه.

(بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ): للعلماء في التفسير **قولان** :-

1- الإنجيل الذي جاء به عيسى عليه السلام.

*** ولكن هذا قولٌ ضعيف لماذا؟**

قال تعالى:{ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (110)}(المائدة)

هذه الآيات تُبين أن الله تعالى أيد نبيه بروح القدس، ثم ذكرت الآية أن الله أعطاه الإنجيل، وبالتالي إذا كان المقصود كما في القول الأول يكون في الآية تكرار!! والقاعدة المعمول بها هي (التأسيس أولى من التأكيد) فإن أمكن أن يكون الكلام في التفسير تأسيسًا (أي احتمال اللفظ لمعنى جديد) يكون أفضل من أن يكون تأكيدًا.

2- جبريل عليه السلام:

ودليل القرآن هو: (آية سورة المائدة التي ذكرناها) والتي ورد في أولها (أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ) ثم ورد فيها أيضًا بعد ذلك (وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ) فإذا سلمنا بالقول الأول يكون هناك تكرار ليس له داعٍ.

أما دليل السنة: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضَعُ لِحَسَّانَ مِنْبَرًا فِي الْمَسْجِدِ يَقُومُ عَلَيْهِ قَائِمًا يُفَاخِرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ قَالَتْ: يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ القُدُسِ مَا يُفَاخِرُ، أَوْ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. [سنن الترمذي(2846)]

الشاهد: أن روح القدس هو جبريل عليه السلام.

(أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ):

لقد فعلتم مع موسى عليه السلام الأفاعيل وبعد موسى جاءتكم رسل ربكم تترى فقتلتم البعض منهم وآذيتم البعض وفعلتم معهم ما لا يليق ولا يجوز أن يُفعل بأنبياء الله سبحانه.

(أَفَكُلَّمَا):

فهل سيكون هذا هو حالكم دائمًا؟ وهذا دليل على الاستمرار والتكرار فهم يتبعون هوى أنفسهم، هؤلاء أصبحوا عُبَّادًا لأنفسهم لا عُبَّادًا لله.

العابد لله لا يختار لنفسه بل يترك الاختيار لربه فهو وحده سبحانه الذي يُقدّر الخير لعباده ويختار لهم، أما اختيار البشر لأنفسهم فإنه لا يخلو من الشر لأن صفات النفس بطبيعة الحال تتميز بالعجز والضعف والقصور الذي يجعلها عاجزة عن الاختيار السليم.

" وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ (88) "

عَلّل القوم جحودهم وتركهم لطاعة الأنبياء والإقبال على قتلهم وكفرهم بهم بعلة داحضة ألا وهي:

(قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ) الغلف: أي الغطاء؛ وكأنهم قالوا أن على قلوبنا غطاء وهذا الغطاء هو المانع من أن يفقهوا ما يقوله النبيﷺ !!

- كان هذا هو ادّعاؤهم، أما حقيقة الأمر فبيَنها الله بعد ذلك في قوله تعالى (بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ)؛ (بل) حرف إضراب؛ يضرب عما قبله ويُثبت ما بعده، ولهذا فإن القضية ليست في القلوب التي غطتها الأغلفة كما يدّعون وإنما هو كفرهم الذي عاد عليهم بلعن الله لهم.

(فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ): هل المعنى هنا أن إيمانهم قليل؟ أم أن المؤمنين منهم قِلة؟ هناك قولان للعلماء:-

1- المعنى أن إيمانهم قليل؛ لأن قليل نعت لمصدر متروك تقديره (فلا تؤمنون إلا إيمانًا قليًلا) فدل على أن هؤلاء إيمانهم قليل.

2- المعنى أن المؤمنين منهم قِلة، ورد عليهم أصحاب القول الأول بأنه لو كان المقصود (قلة منهم مَن يؤمنوا) لكانت الكلمة ذكرت بالرفع (فقليلٌ) ولكنها ذكرت منصوبة (فقليلًا).

سؤال: المعلوم بنَص القرآن والسنة أن اليهود كفار مُخلدون في النار فما المقصود إذًا بنسبة الإيمان القليلة المذكورة ؟

الجواب: الإيمان لغةً: التصديق، شرعًا: قول وعمل

إذًا الأصل فيه التصديق: واليهود كان لديهم تصديق ببعض الأخبار(الله موجود / معترفين بالجنة والنار/ الثواب والعقاب) إيمان القوم كان بهذه الأمور ولكنهم في نفس الوقت كفروا بالنبيﷺ وهو خاتم النبيين الذي جاء بالرسالة الخاتمة.

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ: " الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يَزْهَرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ: فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ: فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ، ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ: فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ) [مسند أحمد(11129)]

1- قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يَزْهَرُ: وهذا هو قلب المؤمن، صافي طاهر، خالي من الشهوة التي تتسبب في الإعراض عن أمر الله، ومن الشبهة التي تُشكك في طاعة الله وأوامره، فهو قلب يتلألأ بنور الإيمان واليقين والحب وكل ما يُرضي الرب سبحانه.

2- وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ: وهذا هو قلب الكافر، غُلِّف ووضعت عليه الأربطة أيضًا.

3- وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ: وهو قلب المنافق، الذي عرف ثم أعرض وأنكر، وهل يوجد من هذا الصنف الكثير؟ نعم هناك الكثير من الناس يحملون هذه القلوب، فالكثير يعرف الحق ويعرف الأوامر والنواهي (معرفة_ فهم_ شهادة) ولكنهم نكصوا على أعقابهم فعرفوا ثم أنكروا.

4- وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ: وهذا القلب جمع بين الإيمان والنفاق، فهو ما بين الإيمان تارة والنفاق تارة، ما بين الطاعة والمعصية.

والسؤال: هل يمكن أن يجمع المسلم بين الإيمان والنفاق؟

الجواب: نعم. يمكن إذا كان نفاقًا عمليًا وليس عقديًا، ولكنه على خطر لأن الإيمان يمده والنفاق يسحبه فعلى أيهما سيموت ؟ وهذا هو الخطر الذي يستهين به الكثير من المسلمين، فهم ما بين الطاعة والمعصية ولا يدري على أي شيء سيُقبض.

- اليهود قالوا:(قُلُوبُنَا غُلْفٌ): بالفعل أنتم قلوبكم قلوب غُلف قلوب كافرة، وقوله:(فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ): ليس معناه الإيمان الذي يُنجي ولكنه يعني الإيمان ببعض الأشياء التي لن يُنجيهم الإيمان بها، وفرقٌ بين مَن يؤمن ببعض الأشياء ويكفر ببعضها وبين من يؤمن إيمانًا كاملًا ولكنه يقع في المعصية ضعفًا.

"وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (89) "

(وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ):

كان اليهود قبل بعثة النبيﷺ يتعالون على المشركين ويتباهون بأن منهم الأنبياء وأنه سيُبعث فيهم نبي، وهذا ما تقوله التوراة ! كما أنه بمجيء هذا النبي سوف ينتصرون على المشركين ويهزمونهم وسيصبحون من أعظم الأمم !!

- هذه الآيات تحمل حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم للنبيﷺ فأنتم كنتم تستفتحون على المشركين، والآن جاءكم النبيﷺ بنفس الصفات التي ذُكرت في التوراة ؛ فإما أن استفتاحكم بهذا النبي كان كذبًا (وهذا مُحال لأنكم بذلك تُكذبون التوراة)، وإما أنكم تجحدون نبوته (وهذا أيضًا مُحال إذ كيف تستفتحون به وتُكذبونه وتجحدون نبوته في نفس الوقت) ولكن عند بني إسرائيل لا شيء يصعُب حدوثه !

قاعدة (استسلاف المقدمات)

هذه طريقة بها يعرف المناظر كيفية إقامة الحجة على مَن يُناظره وذلك من خلال ما سبق أن نطق به لسانه هو (وكأن كلامك أنت حجة عليك)

- فما هي المقدمات الخاصة بهم؟

هؤلاء استفتحوا على العرب والمشركين وقالوا أنه سيُبعث رسول في هذا الزمان، وذكروا جانبًا من صفاته التي وردت في توراتهم، هذا الاستفتاح معناه الاعتراف به ومن ثَمّ الإيمان به ولابد، فإن ظهر أمام أعينكم فليس أمامكم سوى أحد أمرين: إما الاعتراف به (إقرار بنبوته/ وإقرار بما ورد في التوراة)، وإما العناد الصريح فلا تعترفون به وتكذبونه وهذا يعني أنكم كنتم كاذبين في بداية الأمر.

- فقد سبق لكم أن ذكرتم صفاته التي وردت في التوراة و تكذيبكم له الآن يعني تكذيبًا للتوراة أيضًا، من المحال أن يجتمع الاستفتاح به وعناده.

(فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ):

- **الحق سبحانه لعن الكافرين بصفة عامة، واللعن ورد بالوصف لا بالعين، فلا يجوز لعن أحد بعينه؛ لأن قلوب العباد بين يدي الله عز وجل يُقلبها كيف يشاء وهذا الذي دعوت عليه أو لعنته قد يهتدي في وقت لاحق ويتوب فيتوب الله عليه، وإذا قيل ولكن اللعن ذُكر كثيرًا في السنة: هذا صحيح ولكنه ورد بالوصف لا بالعين..**

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الْأَرْضِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمَّهَ أَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ» قَالَهَا ثَلَاثًا" [مسند أحمد(2915)]

- كان من الممكن أن يُقال: (فلعنة اللَّه عليهم) لأن المعنى مفهوم من السياق ولكنه سبحانه أظهر وقال (فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ)

إذًا فهو إظهار في موضع الإضمار، فلماذا؟

جاءت هكذا من أجل تعميم الحكم بالوصف (فَيَعُم كل كافر تنطبق عليه تلك الصفة).

- ثم بيَّن الله عز وجل ما سبب هذه اللعنة

"بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ (90)"

(بِئۡسَمَا):

كلمة جامعة لكل أصناف المذام، كما أن كلمة (فضل الله): كلمة جامعة لكل المدائح (فكل فضل الله عظيم/ جميل/ كله رحمة..)

(ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ):

فقد قدموا حظوظ النفس وهواها وآثروا العاجل على الآجل ولم يلتفتوا لمآلات الأمور، لقد اشترى القوم المتاع القليل مقابل جنات عرضها السماوات والأرض (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا)

والسؤال: هل اشتروا هنا بمعنى شراء النفس أم بيعها؟

* قيل: أَبْقُوها على ما هي عليه من الكفر؛ حتى لا يكونوا تابعين للنبيﷺ وحتى تظل أهواؤهم هي المُسيرة لهم، فهم يرون أنهم لابد أن يظلوا متبوعين لا تابعين !

*** وقيل: اشترى بمعنى (باع)؛ لأنهم باعوا أنفسهم للشيطان وبذلوا أنفسهم للهوى فخسروا خسرانًا مبينًا.**

- ثم بيّن الله سبحانه سبب كفرهم: ألا وهو البغي..

(بَغْيًا):

والبغي كلمة تدور حول (الظلم/ الكبر/مجاوزة الحد/ الاستطالة على الناس/ الحسد) كل تلك المعاني تندرج تحت كلمة البغي.

- اليهود حسدوا النبيﷺ على نبوته، فقالوا (لماذا تتحول النبوة إلى بني إسماعيل (العرب) بعد أن كانت في بني إسحاق؟)

- وإذا كانت تلك دعواكم فهل حافظتم على الرسل الذين أُرسلوا فيكم وكانوا منكم أم أنكم آذيتموهم وقتلتموهم؟!

- **اليهود لم يعتصموا بالله سبحانه ولكنهم تركوا العنان لأنفسهم فجمحت بهم وتطلعت وبغت وطغت وحسدت ورفضت شرع الله وقتلت أنبياءه !!**

فائدة

النفس كالفرس الجموح تجمح ولكن في فضاء العصيان والنكران والشر والبغي وكل نقص، وبالتالي لا ينبغي للعبد أن يترك نفسه لتنطلق كيف تشاء ولكن عليه أن يمنعها ويزجرها حتى تنكف عن المعاصي بل عليه أن يُلزمها بهذا ولا يحاول أن يستند إلى حجة الضعف أو عدم القدرة أو الحياة الصعبة، كلها كلمات شيطانية يُحاول الشيطان بها أن يتلاعب بالإنسان.

(أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِ)

(يُنَزِّلَ): فعل مضارع يدل على الاستمرار، وفيه إشعار بتمادي نزول الخير على المؤمنين واستمرار الغيظ للكافرين، فكلما نزل الفضل(الخير/العطاء/الإحسان/ النعيم) كلما ازداد غيظ الكافر.

- وفي هذا بشرى لعباد الله الموحدين بتوالي نزول الخير واستمراره رغمًا عن أنف كل أعداء الله - يهود أو مشركين -

{ يُرِيدُونَ لِيُطۡفُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ (8)}(الصف)

(فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖ):

الغضب الأول أنهم حسدوا النبيﷺ فأبوا أن يُذعنوا له، وكانت حجتهم أنه كان من العرب!!

والحقيقة بخلاف ذلك؛ لأن الأنبياء السابقين على الرغم من أنهم كانوا من بني إسرائيل لكنهم أيضًا فعلوا معهم الأفاعيل، حقيقة الأمر إذًا أنهم كانوا يحسدون النبيﷺ على مكانته.

الغضب الثاني كان بسبب عنادهم وكفرهم بأنبياء الله عز وجل من قبل محمدﷺ.

(وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ):

وهنا أيضًا يتكرر الإظهار في موضع الأضمار؛ لماذا؟ للإشعار بِعِلِّيَة كونهم في العذاب المهين؛ أي العِلّة التي استوجبوا بها ذلك، وهو الكفر؛ الكفر بالله وكتبه ورسله، والكفر بما يجب الإيمان به.

- علّق الحكم الذي استحقوه بوصف معيَّن يُبين أنه فيهم، فقال (لِّلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ)؛ فهؤلاء الذين كفروا بالنبيﷺ وبنبوته لهم عذاب مهين، ذكر ذلك حتى لا يعتقد أحد أن كل اليهود باءوا بغضب على غضب، فالبعض منهم أسلموا مثل عبد الله بن سلام وغيره.
- سبق القول أن العذاب المهين لا يأتي إلا في حق الكافر.
- هذا العذاب الذي نالهم أو سينالهم كان نتيجة غضب الله عليهم

والسؤال: هل الله سبحانه يغضب؟

الجواب: نعم، وهذه الصفة من الصفات الثابتة بالكتاب والسنة

- قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ علَى قَوْمٍ فَعَلُوا بنَبِيِّهِ، يُشِيرُ إلى رَباعِيَتِهِ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ علَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسولُ اللَّهِ في سَبيلِ اللَّهِ. » [أخرجه البخاري (4073)، ومسلم (1793)]

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» [أخرجه البخاري(4073)/ أخرجه مسلم(1793)]

- صفات الرب سبحانه ثابتة بالكتاب والسنة وهذا ردًا على مَن ينكرها، فيقول البعض أن الغضب انفعالات نفسية، وهذا قياسًا منهم على صفات البشر!!

- هذا خطأ وحرام وغير جائز، إن غضب الخالق ليس كغضب المخلوق لأن الله سبحانه {لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ (11)}(الشورى) الله يغضب غضبًا يليق بجلاله وكماله وعظيم سلطانه.

فائدة

منشأ معظم الذنوب -إذا تأملنا فيها- نجده (الكِبر) !!

هذا المرض القلبي الذي لا ينجو منه إلا القليل، وهو يصيب الإنسان دون أن يشعر.

- وخطورة هذا المرض القلبي تكمن في أنه يدفع صاحبه إلى الحسد والوقوع في الغيبة ورفض الحق والانتصار للنفس وإن كان على خطأ.

ولذلك قال ربنا سبحانه:{ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60)}(غافر)
فمعنى (داخرين) أي: خاضعين، صاغرين، أذلاء، لأنهم كانوا في الدنيا يتكبرون عن عبادة الله، فوصل بهم الكبر إلى درجة الكفر.

نكمل في اللقاء القادم إن شاء الله ...

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك